قصة قصيرة

بين الهلالين

بقلم: د. محمد أجمل
أستاذ مساعد بمركز الدراسات العربية والإفريقية
كلية اللغة والأدب والثقافة-جامعة
جواهر لال نهرو/ نيودلهي-الهند

حين أطلَّ هلال رمضان من وراء غيوم المساء، كانت ضاحية دلهي تستعدُّ لاستقبال شهرٍ ليس كسائر الشهور. في بيت الحاجّ خليل، اجتمعت الأسرة الكبيرة كما اعتادت في كل عام: الأبوان والأبناء وزوجات الأبناء والأحفاد الذين يملؤون الدار ضحكًا وحركةً لا تهدأ.

كانت الجدة أمينة تقف في المطبخ ترتب أواني النحاس وتقول لحفيدتها مريم:

"يا بُنيّتي، رمضان ضيف عزيز والضيف يُكرم، لكن كرامته ليست في كثرة الطعام بل في صفاء القلوب".

كانت كلماتها تتردّد في أرجاء البيت كما يتردّد صوت المؤذن قبيل المغرب. أما الحاج خليل فكان يجلس في الفناء، يحدّق في السماء مترقّبًا خبر ثبوت الهلال. وما إن أعلن المذياع ثبوت رؤية الهلال حتى تعالت أصوات التكبير من البيت والقرية بأسرها.

في الليلة الأولى من رمضان، بدت الدار مختلفة. سكينة خفيفة تسري بين الجدران كأنها روح جديدة حلّت بالمكان. استيقظ الجميع على صوت الأم وهي تنادي:

"سحور يا أولادي... قوموا إلى البركة".

كان الإمساك عند الفجر لحظةً مهيبة؛ حين يسكن الضجيج ويعمّ الصمت، ثم يرتفع أذان الفجر فيمزّق سكون الليل بندائه العذب. أحسّ الطفل زيدان، بأعوامه العشرة، بشيء لم يعهده من قبل. كان يصوم لأول مرة صيامًا كاملاً.

قال لأبيه وهو يتثاءب:

"يا أبتي، هل سأستطيع الصيام حتى المغرب؟"

ابتسم الأب وربّت على كتفه:

"الصيام يا بنيّ ليس جوعًا فقط بل صبرًا وإرادة، وإذا استعنت بالله أعانك".

مضت الأيام الأولى، وتبدّلت ملامح الحياة. قلَّت الزيارات النهارية، وكثرت التلاوات في الليل. كانت الأم تُمسك بالمصحف بعد صلاة العصر، تقرأ بصوت خافت، فينصت لها الجميع. أما الجدة أمينة فكانت تحكي قصصًا عن شهور رمضان ماضية، يوم كانت الكهرباء تنقطع، وكانوا يضيئون المصابيح الزيتية، ويجتمعون على تمرٍ وقليل من عصير الفواكه.

في أحد الأيام، حدث خلافٌ بسيط بين الأخوين خالد وسعيد حول ترتيب المائدة. ارتفعت الأصوات قليلًا، وكادت الغضبة تفسد صفاء اللحظة، لكن الجدة تدخلت قائلة:

"أهكذا نستقبل الإفطار؟ أبهذا نتلقى ساعة الرحمة؟"

ساد الصمت، وانحنى خالد معتذرًا:

"سامحني يا أخي".

فأجابه سعيد:

"بل أنا المخطئ".

وتعانقا قبل أن يصدح الأذان. كان ذلك درسًا صغيرًا في معنى الإمساك الحقيقي؛ إمساك عن الغضب قبل الإمساك عن الطعام.

كان الإفطار لحظةً جامعة: تمرات ثلاث وماء بارد ودعاء يهمس به كل واحد في سره. كان الحاج خليل يرفع يديه ويقول:

"اللهم كما جمعتنا على طاعتك، فاجمعنا في ظلك يوم لا ظل إلا ظلك".

بعد الإفطار، يخرج الرجال إلى المسجد لصلاة التراويح، تصحبهم نسائم الليل وأصوات الأطفال وهم يلعبون في الأزقة. أما النساء فيبقين في البيت ليصلين، وأحيانًا يذهبن إلى المسجد القريب.

كانت مريم، الطالبة الجامعية، تشعر أن رمضان هذا العام مختلف. فقد مرّت بتجربة صعبة في دراستها، وكادت تفقد ثقتها بنفسها، لكنها وجدت في الصيام طمأنينة عجيبة. كانت تكتب في مفكرتها:

"رمضان ليس شهراً في التقويم، بل محطةٌ لإعادة ترتيب الروح".

وفي العشر الأواخر، اشتدّ الشوق إلى ليلة القدر، فازدادت التلاوة وطال القيام وامتلأ البيت بخشوعٍ عميق. حتى يوسف الصغير صار يصرّ على السهر مع أبيه في المسجد، ويقول بفخر:

"أريد أن أُدرك ليلة القدر".

وفي إحدى الليالي، انقطعت الكهرباء عن الضاحية كلها. عمّ الظلام، لكن أحدًا لم يضجر. أشعلوا الشموع، واجتمعوا في الفناء، وبدأ الحاج خليل يتلو سورة "يس" بصوت رخيم. كان المشهد بسيطًا، لكنه مهيب. شعرت أمينة أن هذا الظلام المادي زاد نور القلوب.

بعد الصلاة، قالت الجدة بصوت متهدّج:

"يا أولادي، لا أعلم إن كنت سأدرك رمضان القادم، لكن أوصيكم أن تبقوا متحابين".

سكت الجميع، وغصّت العبرات في الحناجر. كان رمضان يذكّرهم بقصر الحياة، وبأن الأيام تمضي كما يمضي الشهر سريعًا.

ومع اقتراب نهاية الشهر، بدأ الحديث عن العيد. اشترت الأم ثيابًا جديدة للأطفال، وخبزت كعك العيد برائحةٍ تعبق في البيت كله. كانت مريم تساعدها، بينما يوسف يدور حولهما يسأل:

"كم بقي على العيد؟"
لكن خلف الفرح، كان هناك حنينٌ خفيّ. قالت الأم لزوجها:
"أشعر بالحزن كلما اقترب العيد... كأننا نودّع صديقًا عزيزًا".
أجابها:
"هكذا هو رمضان، يأتي ليعلّمنا، ثم يمضي ليختبر ما تعلمناه".
في ليلة التاسع والعشرين، عاد الحاج خليل من المسجد وهو يحمل خبرًا: لم تثبت رؤية الهلال، وغدًا متمم لشهر رمضان. تنفّس الجميع بارتياح، وكأنهم مُنحوا يومًا إضافيًا من الرحمة.
قضوا ذلك اليوم في عبادةٍ صافية. تصدّقوا، وتصافحوا، وتسامحوا. وفي المساء، أعلن المذياع: "ثبتت رؤية هلال شوال... غدًا عيد الفطر المبارك".
تعالت التكبيرات، وامتلأت الدار فرحًا. ركض خالد إلى أبيه:
"انتهى الصيام"!
ضحك الأب وقال:
"انتهى صيام الشهر، لكن صيام القلب لا ينتهي".
في صباح العيد، استيقظوا قبل الشروق. لبس الجميع أجمل ما عندهم وتعطّروا، وتناولوا تمرات قبل الخروج. كان الطريق إلى المصلى مليئًا بالناس، وجوهٌ باسمة، وقلوبٌ خفيفة.

اصطفّوا في الصلاة، وتردّدت التكبيرات في الفضاء الرحب. شعر خالد أن شيئًا قد تغيّر فيه خلال الشهر؛ صار أكثر صبرًا، وأقرب إلى أسرته. أما سعيد فقرّر أن يبدأ مشروعًا خيريًا صغيرًا للفقراء، مستلهمًا روح رمضان.
بعد الصلاة، عادوا إلى البيت يتبادلون التهاني. قبّل خالد وسعيد يد جدتهما، وقالا:
"عيدك مبارك يا جدتي".
أجابتهما وعيناها تلمعان:
"مبارك عليكما يا صغيريّ... لقد كبرتما في هذا الشهر".
اجتمعوا حول مائدة العيد، يتذوقون كعك وأكلات عيد محلية، ويتبادلون القصص. لكنهم لم ينسوا الدروس التي حملها رمضان لهم: الصبر والتسامح وصلة الرحم، والإنفاق في سبيل الخير.
قال الحاج خليل وهو ينظر إلى أسرته:
"يا أولادي، بين الإمساك والإفطار، وبين الهلالين، تعلّمنا أن الحياة قصيرة، وأن أجمل ما فيها اجتماع القلوب. فاحرصوا أن يبقى هذا البيت عامرًا بالمودة، في رمضان وغيره".
ساد صمتٌ قصير، ثم تعالت الضحكات من جديد. كان العيد فرحًا، لكن رمضان ظلّ حاضرًا في الأرواح، كعطرٍ لا يزول.
وفي المساء، حين هدأت الحركة، جلست مريم في شرفتها تتأمل السماء. لم يعد الهلال ظاهرًا، فقد اكتملت دورة شهرٍ جديد. ابتسمت وهمست:

"وداعًا يا رمضان... سننتظرك عامًا آخر، لكن أثرك باقٍ فينا".

وهكذا، بين لحظة الإمساك الأولى، وفرحة العيد الأخيرة، نسجت الأسرة حكاية شهرٍ كامل؛ حكاية صبرٍ ومحبة، وخلافٍ عابرٍ تلاه عناق، ودموع اختلطت بابتسامات. حكاية بيتٍ أدرك أن رمضان ليس زمنًا عابرًا، بل مدرسةً تعلّم القلوب كيف تحيا.

وكانت تلك السنة شاهدةً على أن أعظم الأعياد ليست في الثياب الجديدة، ولا في موائد الكعك والحلويات، بل في قلوبٍ تجددت، وأرواحٍ اقتربت من خالقها، وأيدٍ تصافحت بعد خصام.

ومضت الأيام، لكن ذكرى ذلك الشهر بقيت في ذاكرة البيت، تتجدد كلما لاح في الأفق هلالٌ جديد.

ومضت أيام العيد الأولى سريعةً كأنها نسيم عابر، لكن أثر رمضان ظلّ ساكنًا في زوايا البيت، كما تبقى رائحة البخور في الأثواب بعد انطفاء جمْرِه.

في اليوم الثاني من العيد، اجتمعت الأسرة في بيت العمّ محمود، شقيق الحاج خليل. كان البيت يعجّ بالأقارب، وأصوات التهاني تتعالى:

"تقبل الله منا ومنكم".

"عيدكم مبارك وسعيد".

جلس الحاج خليل إلى جوار أخيه يتأمل الأطفال وهم يتقافزون بملابسهم الجديدة. قال محمود مبتسمًا:

"أترى يا أخي كيف كبروا؟ كأننا بالأمس كنا نحن ننتظر العيد بهذه اللهفة".

أجابه خليل:

"والأيام تمضي بنا كما مضى رمضان... سريعًا، لكنها تترك في القلب أثرًا".

كانت مريم تمشي بين النساء، توزع قطع الحلوى وتتبادل الابتسامات. اقتربت منها خالتها وسألتها عن دراستها، فأجابت بثقةٍ لم تكن تملكها قبل رمضان. لقد تعلّمت خلال الشهر أن التحديات لا تُهزم باليأس، بل بالصبر والنية الصادقة.

وفي زاوية أخرى، كان خالد وسعيد يتحدثان عن مشروعٍ جديدٍ يجمعهما، بعدما أدركا أن التعاون خير من التنافس. قال سعيد:

"رمضان علّمني أن أخي سندي، لا خصمي".

فضحك خالد وقال:

"إذن فلنجعل مشروعنا صدقةً جاريةً أيضًا".

كان العيد هذا العام يحمل قراراتٍ صغيرة، لكنها عميقة.

أما يوسف، فقد جلس إلى جوار جدته أمينة، يفتح عيديته بشغف. لكنه لم يكتفِ بالفرح بل قال فجأة:

"يا جدتي، أريد أن أضع جزءًا من عيديتي في صندوق المسجد... كما كنا نتصدّق في رمضان".

نظرت إليه الجدة بعينين دامعتين وقالت:

"هكذا يكون العيد يا بنيّ، أن تفرح وتُفرِح غيرك".

أحسّ يوسف أن الصيام لم يكن مجرد امتناع عن الطعام، بل بداية لطريقٍ جديدٍ في قلبه الصغير.
في مساء اليوم الثالث، عاد البيت إلى هدوئه المعتاد. خفّت الزيارات وهدأت الأصوات، لكن شيئًا من نور رمضان بقي في السلوك اليومي.
لم تعد الأسرة تؤخر صلاة الجماعة في البيت، ولم ينقطع صوت التلاوة كما كان يحدث في السابق بعد انتهاء الشهر. قالت الأم ذات مساء:
"لنحافظ على وردٍ يومي من القرآن، ولو صفحةً واحدة".
وافق الجميع، وكأن رمضان ما زال بينهم يذكّرهم بوصاياه.
وذات ليلة، جلس الحاج خليل في فناء البيت، يتأمل السماء وقد اختفى الهلال الرفيع وحلّ محلّه قمرٌ مكتمل. اقتربت منه أمينة وجلست بجانبه. وقالت بهدوء:
"أتذكر أول رمضان صمناه معًا بعد زواجنا؟"
ابتسم وقال:
"كأنّه بالأمس... لم يكن لدينا سوى تمرٍ وماء، لكن كانت قلوبنا ممتلئة".
ردّت أمينة:
"الآن كبرت الأسرة وتوسّع البيت، لكن أجمل ما نملك هو اجتماعنا".
سكتا قليلًا، يسترجعان سنواتٍ طويلةً من الإمساك والإفطار، من الفرح والحزن، من قدوم العيد ووداع الشهر.
ومع مرور الأسابيع، بدأ الأبناء يعودون إلى أعمالهم ودراساتهم، لكنهم شعروا أن هذا العام مختلف. لم يكن رمضان مجرّد محطة عابرة، بل نقطة تحوّل.
قرّر خالد أن يخصص يومًا في الشهر لزيارة الأيتام. وبدأ سعيد في إعداد دروسٍ قصيرةٍ للشباب في المسجد، يستلهم فيها قيم الصبر والإحسان. أما مريم، فقد أنشأت حلقة قراءة صغيرة لصديقاتها، تناقش فيها معاني القرآن التي أثّرت فيها خلال الشهر.
حتى الأم التي كانت ترى في رمضان تعبًا إضافيًا في المطبخ، صارت تنظر إليه كعيدٍ للروح، لا كموسمٍ للطعام فقط.
وفي أحد الأيام، تلقّت الأسرة خبر مرض أحد الجيران المسنين. لم يترددوا بل حملوا طعامًا وزاروه، وجلسوا إلى جواره يواسونه. قال الجار بصوتٍ ضعيف:
"كنتم دائمًا أهل خير، لكنكم هذا العام أقرب إلى القلب".
خرجوا من عنده وقد أدركوا أن أثر رمضان لا يُقاس بعدد الأيام، بل بما يغيّره في الإنسان.
ومضى شوال، وتبعه ذو القعدة، لكن ذكرى ذلك الشهر بقيت حيّة. كانت الأسرة كلما اجتمعت على مائدة الطعام، تذكر لحظة الإفطار الأولى، ودعاء الأب، ودمعة الجدة في العشر الأواخر.
وذات مساء، قال خالد فجأة:
"متى سيأتي رمضان مرة أخرى؟"
ضحك الجميع، وأجابه الأب:

"سيأتي حين يكمل القمر دورته اثنتي عشرة مرة".

فقال خالد بحماس:

"إذن سأعدّ الأيام"!

ابتسمت الجدة وقالت:

"عدّ الأيام يا صغيري، لكن عدّ معها أعمالك الطيبة أيضًا".

كان البيت قد تعلّم أن بين الإمساك وحلول العيد رحلةً لا تنتهي بانتهاء الشهر. الإمساك ليس فقط عن الطعام، بل عن كل ما يؤذي الروح. والعيد ليس ثوبًا جديدًا فحسب، بل قلبٌ جديد.

وفي ليلةٍ هادئة، اجتمعت الأسرة في الفناء مرة أخرى. رفع الحاج خليل يديه بالدعاء:

"اللهم كما بلغتنا رمضان، فبلّغنا رمضان أعوامًا عدة، ونحن في صحةٍ واجتماع".

ردّد الجميع خلفه "آمين"، وكانت الكلمة تخرج من أعماق قلوبٍ عرفت معنى الجوع، ومعنى الشبع، ومعنى القرب من الله، ومعنى الاجتماع على المحبة.

وهكذا في كل عام، حين يطلّ الهلال من جديد، تعود الذكريات ويعود الشوق، وتعود تلك اللحظة الأولى من الإمساك التي تعلن بداية الرحلة.

رحلة شهرٍ يبدأ بصبرٍ وينتهي بفرح، لكنه في الحقيقة لا ينتهي، لأنه يترك في كل قلبٍ مصباحًا صغيرًا يضيء الطريق بقية العام.

وكان بيت الحاج خليل مثالًا لبيتٍ أدرك أن رمضان ليس ضيفًا عابرًا، بل مُعلّمًا يعود كل عام بين الهلالين، ليذكّرهم بأن أجمل ما في الحياة أن تجتمع الأسرة على مائدةٍ واحدة وقلبٍ واحد ودعاءٍ واحد.